تأملات فلسفية في الداروينية الأولى

محاضرة ألقيت في منتدى الثلاثاء الثقافي بتاريخ ٦ ربيع الأول ١٤٤٣هـ الموافق ١٢ أكتوبر ٢٠٢١م

أحمد المدلوح

عضو جمعية الفلسفة في السعودية

مقدمة

أنطلق في ورقتي هذه مستلهماً المبدأ الديكارتي الذي يقوم على محاولة تطبيق منهجٍ معين في موضعٍ آخر غير الموضع الذي وُضع لأجله ابتداء. فهو حين طبّق منهجه الرياضي في العلوم، كان هذا المنهج مبنياً على مجموعة من الحقائق ـ كما يقول ـ وقد أثمر عن نتائجَ أزالت بعض الصعوبات في فهم العلوم في زمانه، مما شجعه لتجربة هذا المنهج في الفلسفة. سأناقش هنا أثرَ الفهم الداروينيي على الاشتغال الفلسفي وخصوصاً على نظرتنا للطبيعة البشرية. وكما تمنى ديكارت في تأملاته، فإنني كذلك أرجو أن يُنظر لحُججي التي سأطرحها بذهنٍ متحررٍ من الانحياز والتعصب لأيّة أفكارٍ سابقة "رغم يقيني بندرة هذا النوع من البشر." إلا أنني -وعلى عكس ديكارت- لا أدعي الوصول إلى الحقيقة، بل أبقى مستمراً في الشك والبحث والتحري.

كما أن الفلسفة في تاريخها لم يحدث بها أي تغيير جوهري منذ زمن الفلاسفة الإغريق إلى أن جاء رينيه ديكارت نفسه في القرن السابع عشر بمنهجه في الشك، فإنّ المعرفة البيولوجية بالطبيعة البشرية لم يحدث بها أي شيء يذكر منذ زمن الإمبراطورية الرومانية، وبالتحديد مع جالينوس، إلى أن جاء تشارلز داروين في

القرن التاسع عشر بفكرته في التطوّر أو -على وجه الدقة- نظريته في أصل الأنواع بالانتقاء الطبيعي.

في هذه التأملات سأجادل بأنّ فكرة التطوّر كما طرحها تشارلز داروين، والتي سوف أشير إليها من هنا ولاحقاً بالداروينية، بالإضافة لكونها نظريّة علميّة، فإنها تنتمي أيضاً للمجال الفلسفي، وأنّ ما يترتب عليها في الفلسفة هو بذات الأهميّة والأثر الذي نجده في تطبيقاتها العلميّة. في هذه الورقة أُعَرِّفُ الداروينية بأنها رؤية للعالم (worldview) مبنيّة على نظرية داروين.

تكمن أهميّة هذه الأطروحة في حقيقة أنّه بينما الداروينية بالكاد نجد مع يعارضها في المجتمع العلمي، إلّا أنّها ما تزال محط خلاف/جدال عندما يتعلق الأمر بالمسائل الفلسفية، ومن أشهر الأمثلة الفيلسوف الراحل جيري فودور الذي كان يعتبر الانتقاء الطبيعي "مغالطة" حيث أن إشكاله الرئيس هو حول الآلية التي يتم بها انتقاء صفة دون أخرى ضمن نفس العوامل الطبيعية. وكذلك الفيلسوفة الراحلة ماري مجلي والتي ذهبت لأبعد من ذلك لترفض تصنيف الداروينية كنظرية علمية، بل واعتبرتها ديناً، في جدالها أنّ العلم لا يمكن أن يكون بديلاً للإنسانيات، وأن الطبيعة موجودةٌ لكي نتعلم منها لا لكي نفهمها.

وبالرغم من وجود هذا الجدل بين الفلاسفة، فإنّ الداروينية ليست بالعادة موضوعاً فلسفياً يُدرس في كليات الفلسفة أو يُكتب عنه في الكتب الفلسفية المرجعية. لهذا السبب أجادلُ بأنّ تبنّي المنهج التطوري في الفلسفة، وهذا يعني استعمال الدارونيّة ونتائجها كإطار نظري للبحث، كما فعل كارل بوبر، سيدفع بالتفكير الفلسفي للأمام، وسيساعدنا لإجلاء الغموض حول مواضيع فلسفية أساسية كالطبيعة البشرية، والإله، والأخلاق.

التأمّل الأوّل: حول ما نعنيه عندما نقول أننا نفكّر فلسفيّاً في السياق الداروينـي

من ناحية المبدأ، العلم والطريقة العلميّة يتعاملان فقط وفقط بالأدلّة التجريبية والمشاهدة والقياس، وليس من ضمن نطاق عملهما المفاهيم المجرّدة أو الأسئلة الفلسفية أو الروحانيّة، حيث أنّ هذه الأخيرة تقتضي، بطبيعتها، التكهّن (speculation)، وهذا هو دور الفلسفة. ولكن الداروينية تُقَدّم معطيات هامّة وأسسا قويّة يُبنى عليها التكهّن الفلسفي، ولذلك ينبغي أن تُعتبر الداروينية فكرة فلسفيّة تتجاوز ما يمكن للعلم إثباته أو دحضه. تماماً كما أنّ الباحثين في حقول معرفية غير بيولوجية كعلوم النفس والأنثروبولوجيا يقومون بأخذ المسلمات الداروينية للبناء عليها في أبحاثهم التي -في بعض الأحيان- لم تكن لتعطي أي معنى ما لم يتم فحصها من خلال العدسة الداروينية.

وكمثال على ذلك، رُفِضَتْ الداروينية من قبل اللورد كيلفن، عالم الفيزياء المعروف، والذي أطلق اسمه على وحدة قياس درجة الحرارة كيلفن. داروين كان يقدر المدة اللازمة لظهور الأنواع الجديدة من الكائنات الحيّة بمئات الملايين من السنوات. في حين أن "المسلمة" الفيزيائية حينئذ بحسب حسابات كيلفن كانت تقول بأن عمر الشمس -فضلاً عن كوكب الأرض- لا يمكن أن يزيد عن ٤٠ مليون سنة. إذن، بالإمكان دحض "فرضية" تطور الكائنات بالآليات التي قدمها داروين، لأنها تتناقض مع أفضل حسابات فيزيائية نظرية آنذاك. ولعل هذا كان أكبر تهديد لصحة النظرية الداروينية، خصوصاً أنّ ملاحظة كيلفن جاءت في الفترة المعروفة ب"الكسوف الداروينـي" وهي الفترة الأخيرة من نهايات القرن التاسع عشر إلى أربعينيات القرن العشرين حين خف ضوء النظرية الداروينية ولم تكن محل ترحيب من قبل معظم علماء الأحياء آنذاك. إلّا أن

صياغة هانز بيته لنظريته في التفاعلات النووية الحرارية الناتجة عن قوة احتراق النجوم والتي رفعت عمر الشمس للمعامل ١٠٠، أعطت المصداقية لنظرية داروين من جديد.

وخلاصة القول هي أن على النظرية العلمية أن تكون متسقة مع الحقائق المتقاطعة معها في العلوم الأخرى، وأن يكون الشك فلسفياً في التكهن وليس في الحقائق العلمية، ولهذا فإنّ صحة الداروينية وحقيقتها يُمَثِّلُ فتحاً فكرياً تُبنى عليه الحجج الفلسفية. كما فعل كارل بوبر في كتابه "المعرفة الموضوعية" (Objective Knowledge)، حيث استخدم النموذج الداروينى كأساس لنظريته الخاصة بالمعرفة. ولم يناقش بوبر الداروينية كتفسير علمي بصورة مطولة فحسب، بل حاول استنباط فرضية علمية خاصة به مرتبطة بالطبيعة الثنائية للجينات بهدف تقوية الأسس النظرية التي يتكئ عليها الداروينيون الجدد. وقبل ذلك نجد كارل ماركس، مثلاً، يشيد بكتابات داروين ويعتبر الانتقاء الطبيعي هي الفكرة التأسيسية التي اعتمد عليها لشرح الصراع الطبقي في التاريخ.

التأمّل الثاني: حول الطبيعة البشرية باعتبارها موضوعاً فلسفيّاً.

قدمت الداروينية لغةً جديدةً للتعبير بوضوح عن المفاهيم المتعلقة بالطبيعة البشرية، ومعالجة المشاكل بطرق جديدة، فحدث هنالك تحول في النمط الفكري (paradigm shift) -كما يعبّر الفيلسوف توماس كون-، فكانت الداروينية مغيّرة لقواعد اللعبة في مجال الميتافيزيقيا، لأنها تجاهلت فكرة الجوهر والعرض في تعريفها للأنواع، وخصوصاً الإنسان.

يقول داروين في مقدمة كتاب تحدّر الإنسان: "لقد كان الحال دوماً ومؤكداً بكل ثقة أن أصل الإنسان لا يمكن معرفته أبداً: لكن

الجهل غالباً ما يولّد الثقة بدلاً من المعرفة: إنّهم أولائك الذين يعرفون القليل، وليس أولئك الذين يعرفون الكثير، مَن يؤكد بإيجابيّة أن هذه المشكلة أو تلك لا يمكن للعلم أن يجد لها حلاً." وهكذا توّصل داروين لرأيه المشهور، وهو أن الفرق بين الإنسان والثدييات العليا ليس اختلافًا في الصنف، بل في الدرجة. وبتموضع الإنسان على شجرة الحياة، قدّم داروين زاوية رؤية فريدة ننظر من خلالها للجنس البشري. زاوية رؤية تجعلهم كائنات عادية ومتفردة في آنٍ واحد. كائنات عادية، لأنّ البشر ظهروا بعملية محايدة في الطبيعة (by chance) من أجداد مشتركين مع بقية أشكال الحياة؛ وكائنات متفردة، لأنّهم تمكّنوا من امتلاك الثقافة واللغة، وهي الخصائص التي مكّنتهم من التفوّق على الأنواع الأخرى والسيطرة على كوكب الأرض.

وخلاصة القول هي أن الداروينية ألغت محورية الإنسان في التاريخ الطبيعي. فالإنسان -بحسب المنطق الداروينيّ- لم يُخلق على صورة الإله (لا نعرف ما هي صورة الإله من الأساس لكي نطابق الصورتين)، وهو ليس عنصرا مميزا خارج التاريخ. بل وليس هو التاريخ. فلم نعد مغايرين للطبيعة. بل أصبحنا جزءا من الطبيعة وجزءا من التاريخ. ومن ثم فحقيقة أننا نمتلك أجسادا حيوانية أصبح ذا أهمية تاريخية. وقد تمظهر ذلك كما نقرأ في أعمال ميشيل فوكو في التاريخ السياسي للسيطرة على جسد الإنسان.

التأمّل الثالث: حول المعنى الواسع لمفهوم الدارونيّة والأثر الفلسفي لذلك.

في البحث العلمي المعاصر، تتجاوز الداروينية التطبيقات البيولوجية، لأنها في جوهرها تصف عمليّة نشوء المعلومات من خلال الانتقاء والتنوّع بالتبادل. ويعتمد هذا التطبيق الأوسع

للداروينية على حقيقة أن الجينات والأفكار تشترك في نفس الخصائص، حيث أنّ كليهما تتسمان بالنسخ والتكرار (replicators)، وكان قد أسس لهذه الفكرة عالم البيولوجيا التطورية بجامعة أوكسفورد ريتشادر دوكنز، عندما نظرّ لمفهوم الميم (على وزن جين) في الفصل الأخير من كتابه الجينة الأنانية، فاقترح أنّ السمات الثقافية -وأسماها الميمات- محفوظة في الأصوات أو النصوص المكتوبة أو الإشارات الكهربائية كما أنّ صفات الجين محفوظة في DNA، وتتطور هذه السمات الثقافية بآليات الانتقاء الطبيعي، وتنتشر بتفضيل العناصر التي تساعدها على البقاء والانتقال للجيل التالي. وهذا هو سبب حدوث التطور الثقافي في التجمعات البشرية، الموازي للتطور البيولوجي الحادث في أفرادها.

هناك إشكالية مرتبطة بآلية انتقال الميمة من كائن لآخر، ففي حين أنّ الأمر واضح ويمكن مشاهدته مع الجينات: إما الانتقال غير الجنسي بنسخ كامل الجينوم، كما في البكتيريا، أو حتى في عملية الاستنساخ، أو بالانتقال الجنسي المعروف، باندماج عدد اثنين جينوم بالكامل ثم انتقال نصف جينات الولد من كلٍ من الوالدين بطريقة التوريث المندليّ. لكن مع الميمات، فإنّ "النصوص" الميمية المعقدّة تندمج بحريّة أكبر لتوليد نص جديد قابل للانتقال للجيل التالي بانسياب، كما في الأيديولوجيات المتماسكة التي يظهر فيها الترابط بشكل واضح رغم اختلافها الطفيف عن النصوص الأصلية المتولدة عنها، والأديان -حسب دوكنز- هي أفضل مثال على ذلك. ونظراً لتعقيد شبكّة الترابط الفكري، من الصعب المعرفة تماماً ما إذا كانت فكرة ما أصيلة أو هي وليدة عملية اندماج بين ميمات مختلفة.

الجينات التي لدينا اليوم هي التي نجحت في البقاء من الماضي. وإذا كان للجينات من غاية ما فهو بقاؤها وانتقالها.

وبالمثل فإنّ الأفكار (أو الميمات) تتكاثر، إمّا بانتقالها من عقول أخرى، أو بتزاوجها داخل العقل الواحد، وفي حقيقة الأمر فإنّ معظم أفكارنا هي هجين متولد من عقول الآخرين أو من عقولنا. والأفكار الناجحة -بالمعنى الدارويني- هي الأفكار المفيدة لنفسها وللأفكار القريبة منها للبقاء في البيئة الماديّة التي تتحداها. الأفكار الناجحة مقنعة جداً حتى للتحيزات الموجودة في جيناتنا، بل حتى عندما لا تعمل لمصلحة جيناتنا. لذلك، عندما يكون شخص ما مستعداً للموت من أجل مُثُل سياسية أو دينية معيّنة، فإن تحريض الميمات تتفوّق على رغبة الجينات الغريزية الملحّة للبقاء. وبالمقابل، فعندما يخوض واعظ علاقة جنسية عابرة ويعرض مكانته للخطر، فإنّ توسلات جيناته تفوقت على المُثل التي يؤمن بها من خلال أفكاره.

وخلاصة القول هي أن الانتقاء الطبيعي يقوم بتفضيل التحيزات الجينية على الأفكار التي تقلل الفاعليّة الجينية، ولكن الأفكار أسرع تطوراً من الجينات وأقدر على التكيّف مع هذه التحيزات الجينية. ولهذا فإنّ خياراتنا في الحياة تتشكل من هذا التفاعل الفريد بين إصرار وعناد الجينات مع رشاقة ومرونة الأفكار.

التأمل الرابع: في أثر الداروينية على الفلاسفة.

لم تبدأ الداروينية بتوليد افتراضات جديدة حول الطبيعة البشرية فحسب، بل بدأت أيضًا بإلهام الفلاسفة والتأثير في أفكارهم ومواقفهم الفلسفية، وقادتهم لاستنباط تكهنات أصيلة، وكانت مصدر إلهام لتطوير فلسفات أخلاقية وسياسية جديدة. فعلى سبيل المثال، الفيلسوف هربرت سبنسر، دعا إلى فكرة سيئة السمعة وعفا عليها الزمن وهي الداروينية الاجتماعية، والتي كانت تنطلق من تفسيرٍ للانتقاء الطبيعي يُستخدم لتأييد الاستعمار والإمبريالية ومناهضة النقابات العماليّة والأعضاء المحرومين في

منتدى الثلاثاء الثقافي
Thulatha Cultural Forum

المجتمع. وبالمثل، تُستعمل الداروينيّة اليوم لتبرير المعتقدات التي يدافع عنها المحافظون عادةً. كالأدوار التقليدية للرجل والمرأة في الأسرة، رأسمالية عدم التدخل (laissez-faire)، والحكومة المحدودة. وبالمقابل، نجد بعض الفلاسفة، كالأسترالي بيتر سينغر، يستخدمون الداروينية لدعم قضايا ينشط فيها الليبراليون، كبرامج الضمان الاجتماعي، والدفاع عن حقوق الحيوان.

وسواءً اتفقنا أم اختلفنا مع هكذا تفسيرات، فهذا ليس ذا علاقة بتأملاتي. فما أريد أن أؤكد عليه هنا هو أنّ الداروينية رغم عدم إدراجها ضمن مناهج الفلسفة إلا أنها مؤثرةٌ في آراء الفلاسفة بمختلف مدارسهم. وأختمُ بفيلسوف البراغماتية جون ديوي كنموذج.

اقترح ديوي في قراءته لداروين أن البشر مخلوقات تحركها الرغبات أكثر من كونها مخلوقات عقلانية. وقد أثبتت التوليفة الحديثة بين علم الأحياء التطوري وعلم النفس الإدراكي أنه كان على حق. كما رفض ديوي أي ثبات في الأنواع، وأشار في كتاباته إلى حقيقة أنه ضد فكرة أرسطو عن الأشكال الثابتة أو الجواهر الثابتة. نتيجة لذلك، يرفض ديوي أي قضايا عامة (universals) وأي أسباب نهائية أو جوهرية (Telos). وليس في فلسفة ديوي أي شيء اسمه غايات نهائية يجب أن نسعى لها. بل ويؤكد أنه حتى تفكيرنا ليس ثابتًا، لكنه يتكيف مع عالم متغير.

الفلسفة في حد ذاتها ليست نظرية، في تقدير جون ديوي، لكنها موضوع نشأ من الأمور العملية، وانعكاس لما يحدث في الحياة. وحقيقة أن العقل البشري قد تطور من أشكال أخرى للحياة تحمل مستويات وعي مختلفة عن الإنسان الحالي يفترض أن طبيعة منتجات هذا العقل كالأحكام الأخلاقية، المعارف، وحتى الديمقراطية - هي نتائج تدريجية للتفكير التجريبي الذي أنتجه

العقل البشري أثناء تطوره، ثم تم وضعها موضع التنفيذ للتحقق من قابليتها للتطبيق. لم تكن الداروينية مصدر إلهام لديوي لتحدي الفلسفة التقليدية فحسب، بل ساعدته أيضًا في إثبات وجود نموذج فلسفي جديد يعتمد على التفكير العلمي كمنهجيّة للأخلاق ونظرية المعرفة.

الاستمرارية هي المفتاح في تفكير جون ديوي. أعطته الداروينية أداة مفيدة لتطوير نظريته في التجربة باعتبارها عملية تفكير ديناميكي تتشابك مع الثقافة والأصول البشرية وتطور العقل، بالإضافة إلى تصوره لاكتساب المعرفة كمسعى مفتوح. بعبارة أخرى، بالنسبة لديوي، الفلسفة تكمن في السياق وليس المفاهيم المجردة، وهو ما يوازي المفهوم الداروينيي في الاعتماد المتبادل بين الكائن والطبيعة. هذا النوع من التفكير جعل من الصعب النظر إلى الطبيعة البشرية بالطريقة التي اعتدنا عليها قبل داروين. أصبح كل شيء من حولنا يبدو مختلفًا، حتى المفاهيم المجردة، كمفهوم الإله. فشكلت الداروينية تهديدًا لوجهات النظر السائدة عن الطبيعة البشرية، والتي تفترض أن بعض العناصر الميتافيزيقية تلعب دورًا في بناء الطبيعة البشرية. تحدت الداروينية، كما يشير الفيلسوف التحليلي راسل، الأعرافَ اللاهوتية -وحتى الديكارتية- حول التمييز بين البشر والحيوانات الأخرى، وحول المعتقدات المتعلقة بالروح والخطيئة والجحيم. وبسبب الداروينية، تبدو التفسيرات الخارقة للطبيعة لهذه القضايا وكأنها تعسفية.

مُنتدى الثلاثاء الثقافي

Thulatha Cultural Forum